التفـــاؤل والأمل

ما أجمل الأمل ، وما أصعب اليأس ، وما أشقه ، وما أخطره ، اليأس مدمر للنفوس ، محبط للآمال ، مولد للكآبة ، مثبط للهمم ؛ لذا نهى الإسلام عن اليأس والتأييس ، والإحباط والتحبيط ، وعدّه بعض أهل العلم من الكبائر .

يقول الحق سبحانه وتعالى على لسان سيدنا يعقوب (عليه السلام) : "يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ " (يوسف: ٨٧) ، ويقول سبحانه وتعالى على لسان إبراهيم (عليه السلام) : "أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ "(الحجر : ٥٤-٥٦) ، وعن ابن عبّاس (رضي اللهّ عنهما) أنّه قال: إنّ رجلا قال : يا رسول اللهّ ، ما الكبائر ؟ قال: " الشِّرْكُ بِالله ، وَالْإِيَاسُ مِنْ رَوْحِ الله ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ الله " (الجامع الصحيح).

ونقول لمن كان مريضًا حتى لو كان مرضه عضالا أو مزمنًا : لا تيأس من الشفاء ، وَتَذكَّر ما مَنَّ الله به على سيدنا أيوب (عليه السلام) ، وتمسك بما دعا به ربه ، واجعله في ذلك لك قدوة ، حيث يقول الحق سبحانه : "وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ" (الأنبياء:٨٣،٨٤).

وإن كنت عقيمًا لا تنسى ما منَّ الله (عز وجل) به على سيدنا زكريًا (عليه السلام) مع ما كان عليه من تقدم في السن وعقم بالزوج لا يرجى معه ولد ، وذلك حين نادى زكريا (عليه السلام) ربه : " قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ

لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا " (مريم :٤-٦) ، وحيث يقول الحق سبحانه :" وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٨٩ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ "(الأنبياء : ٨٩،٩٠).

والطبيعي أن المرأة العقيم التي لا تنجب تعالج أولاً من العقم ثم يكون الإنجاب ، لكن النص القرآني لم يَسر على هذه الوتيرة أو هذا النسق ، وإنما قال سبحانه:" وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ" (الأنبياء: ٩٠). ، فقدم البشرى بالولد على إصلاح الزوج ، وكأنه سبحانه يعلمنا أنه قادر على أن يعطي الولد بأسباب وبلا أسباب ، أصلح الزوج أو لم يصلحها ، " إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ " (يس :٨٢) ، وهو ما حكاه القرآن الكريم في قصة إبراهيم (عليه السلام) حين بشرته الملائكة بالولد مع تقدم سنه ، حيث يقول الحق سبحانه :" وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ۝٧١ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ "(هود : ٧١-٧٣) .

وإن كان الإنسان في ضيق أو فاقة ، فليعلم أن خزائن الله ملأى لا تنفد أبدا ، وأن الأيام دول بين عسر ويسر ، فغني اليوم قد يكون فقير الغد ، وفقير اليوم قد يكون غني الغد ، قال الشاعر:

ألمْ ترَ أنَّ الفقـرَ يُرجى له الغِنَـى
وأنَّ الغنى يُخشى عَليهِ مِنَ الفقـر

ويقول الحق سبحانه : " وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ " (الطلاق: ٢،٣) ، ويقول سبحانه : " وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا " (الطلاق: ٤) ، ويقول سبحانه:" مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ "(فاطر:٢) .

وإن قيل لكم : إن الناس قد جمعوا لكم وتألبوا عليكم فاخشوهم ، فلكم في رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه أسوة حسنة ، حيث يقول الحق سبحانه : " ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ۝١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ " (آل عمران : ١٧٣-١٧٤) .

وسئل أحد الصالحين: أي آية في القرآن الكريم أرجى؟، فقال : قوله سبحانه وتعالى :" قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ " (الزمر : ٥٣).

فيجب أن نتحلى بالأمل في غد أفضل ، ومستقبل مشرق ، وفتح من الله قريب ، لا نيأس ولا نجزع ، ولا نتشاءم ، لأن عدونا يريد أن يصل بنا إلى اليأس والإحباط ، وأنه لا جدوى ولا أمل لنخضع ونستسلم ، غير أن ديننا وثقافتنا لا يعرفان لليأس طريقًا ، فنحن ذوو أمل كبير ، يقول الشاعر:

قـال: السَّمـاءُ كئيبـةٌ ! وتجهَّمَـا

قلـت: ابتَسِمْ يكْفِي التَّجهُّمُ في السَّمـا

قـال: الليَالـي جرَّعتني عَلقَمـا

قلـت: ابتَسِـمْ ولئن جُرِّعْتَ العَلْقَمَـا

فلَعَـلَّ غَيْـرَكَ إن رآك مُرنّمـا

غير أن الأمل يحتاج إلى عمل ، لأن الأمل بلا عمل كجسد بلا ساق ، لا يقوم له قوام ، مما يجعلنا ندعو وبشدة إلى الأمل المبني على العمل والأخذ بالأسباب ، وإلا كان أملاً أجوف لا طائل منه ، فقد كان سيدنا عمر (رضي الله عنه) يقول : لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول : اللهم ارزقني فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : "هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ " (الملك : ١٥) ، وقد جمع الحق سبحانه وتعالى في كتابه الكريم بين الباحثين عن الرزق الحلال والمجاهدين في سبيل الله ، فقال سبحانه : "عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ " (المزمل: ٢٠) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى الله حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُوا خِمَاصا وَتَرُوْحُ بِطَانا " (رواه الترمذي) ، قال أهل العلم : إن الطير هنا تأخذ بالأسباب فهي تغدو وتروح، ولا تمكث كسالى في أعشاشها وأوكارها وتقول : اللهم ارزقني ، فما أحوجنا إلى الأمل والعمل معًا ، الأمل الذي يستجلب الهمة والنشاط ، والعمل الذي نعمر به الكون ، ونبني به الحضارة، ونصلح أمر ديننا ودنيانا.

* * *